

سيكولوجيا الإبداع في تجربة

يوسف إدريس الرحلية

د، سعد بولنوار

جامعة الأغواط

يعد البحث في أبعاد الرحلة في الأدب العربي مهم جداً، لما يحمله هذا الجانب من قيم جديدة ومعارف ومعلومات ثرية وماتعة، هذا بالإضافة إلى ما سيقدمه هذا النوع الأدبي من تجربة قرائية فريدة من نوعها، لذلك فإن أي تناول علمي لهذه الظاهرة الأدبية يعد تناولاً مشروعاً يعضده وجود الشروط الضرورية المتوفرة في المدونة الرحلية، وبالإمكان من هذا المنطلق الأساسي أن يدرس الأدب الرحلي من جوانبه المتعددة المكونة له، وقد تناولت في هذا البحث محاولة في ولوج العوامل التي ساهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في ظهور هذا الأدب عند أديب معروف له مكانته المعتبرة في عالم الكتابة الأدبية ألا وهو يوسف إدريس وهو غني عن التعريف، فقد ولد عام 1927 ووافته المنية عام 1991 ويعد "عميد القصة المصرية مسرحي من الصحفيين ولد بمحافظة الشرقية وحصل على بكالوريوس الطب والجراحة ودبلوم الأمراض النفسية ودبلوم الصحة العامة فعين طبيب امتياز... عمل بالصحافة وكان عضواً في اتحاد الكتاب وفي نقابة الصحفيين فوكيلاً لها ورئيساً لجمعية كتاب المسرح ونقاده وجدد في المسرح المصري الحديث، منح جائزة الدولة التقديرية في الآداب وجائزة صدام حسين للأدب وتوفي بلندن له أكثر من أربعين عملاً في المسرح والقصة القصيرة والرواية والرحلات"¹، وللعلم فإنه في 1961 انضم إلى

المناضلين الجزائريين في الجبال وحارب معارك استقلالهم ستة أشهر وأصيب بجرح وأهداه الجزائريون وساماً إعراباً عن تقديرهم لجهوده في سبيلهم"²، وقد "سافر عدة مرات إلى جل العالم العربي وزار (بين 1953 و1980) كلاً من فرنسا، إنجلترا، أمريكا واليابان وتايلندا وسنغافورة وبلاد جنوب شرق آسيا"³، وسويسرا.

وسيكولوجيا الإبداع على تظاferها الواضح مع معنى الفن إجمالاً تتمثل في "القدرة على الانتقاء من بين الموجودات المحيطة به أو التي يتخيلها نوعيات معينة ذات صفات متباينة ويقوم بنقلها إلى المشاهد أو المستمع في صيغة أو أخرى"⁴ وهي بهذا المعنى تطرح انشغالات وأسئلة كثيرة ينبغي أن يجاب عنها على نحو من التدرج، ولعل أهم سؤال كيف أبدع هذا الأديب وأخرج نصه بهذه الصورة الجميلة والمكتملة، ولعلنا لا يمكن، في حال من أحوال استحوذ سلطة النص على ذواتنا، إلا أن نقول: إنه الإبداع، ومفهوم الإبداع في ارتباطه بالسيكولوجيا عرف قديماً عند العرب ولقي تفسيرات متعددة، ولعل أبرز هذه التفسيرات ما سمي بشيطان الشعر وحكاية وادي عبقور، ولعلنا في هذا الشأن يمكن أن نرجع هذا التفسير الميتافيزيقي إن صح القول إلى افتتان العرب بقصائد الشعراء التي لا تجارى، وهناك تفسير آخر يمكن أن يعطي لهذه الظاهرة معنى قريباً وهو دعوة نقاد الشعر إلى الالتزام بعمود الشعر، فهذا الالتزام الصارم أو المحاكاة التي ينبغي أن يبدع وفقها الشاعر متبعاً ما يعرف بعيون الشعر في تلك المرحلة يمكن أن يعد قانوناً إبداعياً مهماً في تلك الفترة.

ورفع المعنويات وبالفعل تأثر أدبه بكل مرحلة تأثراً شديداً وجاء قلمه معبراً عن كل ذلك بجانب ذلك تأثر أيضاً بمهنته التي زاولها وهي مهنة الطب حيث عاش يوسف إدريس مع المرضى لحظات الألم والأمل ومنها اكتسب قدرة التعبير عن معاناة الناس⁶، وفي ترحاله أيضاً لمسات من هذا، فنشير إلى أنه "في 1961 انضم إلى المناضلين الجزائريين في الجبال وحارب معارك استقلالهم ستة أشهر وأصيب بجرح وأهداه الجزائريون وساماً إعراباً عن تقديرهم لجهوده في سبيلهم وعاد إلى مصر"⁷ ورجع بعدها إلى الجزائر سنة 1962، كمراسل لجريدة الجمهورية، يقول: "ذهبت مع مجموعة من الصحفيين المصريين لتغطية أخبار الخلاف الخطير الذي نشأ بين مجموعة بن خدة ومجموعة بن بلة عشية حصول الجزائر على استقلالها"⁸، وقد سئل يوسف إدريس مرة حول ما إذا كان قد مال إلى العقلانية وهو الكاتب الوجداني، فقال: "إنني لا أكتب بناء على تحديد دقيق لوظيفتي في الحياة.. فلست أعرف لي وظيفة غير محاولة مساعدة الآخرين ليساعدوني.. وحين أرى عقل أمتي هو الغائب، فلا أفكر لثانية واحدة في أي شيء سوى أن أعتبر نفسي مجنونا تماماً كالمجنون إجبارياً في القوات المسلحة للدفاع عن الوطن والعقل"⁹، وحين سئل سؤالاً آخر حول الشخصية العربية، "قال بصوت هادئ: سأغادر الإسكندرية إلى الزقازيق غداً، إن كنت ستسافر إلى القاهرة غداً تعال معي... هذا هو السر إذن كثرة الأسفار هي التي مكنته من التحرك في عالم متسع، من يراجع أعماله الفنية يدهش لتنوع هذا العالم وثرائه"¹⁰.

وقد سافر أيضاً إلى سويسرا رفقة لويس عوض، يقول في ذلك: "وكان رفيقي في الرحلة

أما مفهوم الأدب الرحلي بغض النظر عن دوافعه في نظر مجدي وهبة هو "الأدب المكتوب من وحي الانتقال من مكان إلى مكان آخر، أدب الرحلة، أو أدب الرحلات (Littérature de voyages) بالفرنسية، و (Travel literature) بالإنجليزية وهو مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته، وفي بلاد مختلفة. وقد يتعرض لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، تسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته، مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد... ويعتبر أدب الرحلات إلى جانب قيمته الترفيهية والأدبية أحياناً مصدرراً هاماً للدراسات التاريخية المقارنة وذلك خاصة بالنسبة للعصور الوسطى"⁵، ولكن ما علاقة الأدب الرحلي بالسيرة الذاتية؟ هل تصح السيرة أن تكون أدب رحلة؟ إن هذه العلاقة على ما فيها من آراء علمية يمكن لي أن أربطها -مقاربة- بموضوعي والذي هو البحث في سيكولوجيا الإبداع، فلا يمكن دراسة كفاءات إنتاج أدب الأديب إلا بالمرور بالسيرة الذاتية له باعتبارها عاملاً مساعداً في توضيح الرؤيا الفنية لهذا الأديب يوسف إدريس.

وينبغي الإشارة كمدخل أن نسأل هذا السؤال: كيف تشكل فكر يوسف إدريس؟ "يوسف إدريس عاصر خلال شبابه الكثير من الأحداث الهامة التي مر بها المجتمع المصري سواء إن كانت تتعلق بالسياسة أو الثقافة أو غير ذلك، وبالفعل كانت مرحلة تاريخية هامة من حيث التغيرات انتهاء الحكم الملكي وقيام الثورة ومن بعدها النكسة التي حطمت الآمال وبعدها النصر في أكتوبر 1973 ميلادياً

المجتمعات وبين الدول وهكذا¹³، والغريب أنه قد سُمي قصة من قصصه بـ المساحة الحرجة¹⁴ وربما ارتبط المفهوم النظري بجانبه التطبيقي، وبعد حوار وأخذ ورد أجاب دورنمات موافقا بقوله: "إنه احتمال وارد بل هو في الحقيقة تفسيرا نحن الكتاب أو افتراضاتنا عما يجري داخل الكون ومادته"¹⁵، ومن هنا يتبدى البعد الفلسفي وكذلك الرحلي، لإنتاج يوسف إدريس الأدبي، ويمكن أن نعد مجموعته القصصية (عزف منفرد) كسيرة ذاتية أنارت لنا بعضا من أهم رحلاته.

ولعل الخصوصية التي تفرد بها يوسف إدريس في بعض الجوانب هي الرحلة النفسية التي ظهرت كسمة أسلوبية حاضرة في الكثير من أعماله الأدبية، ويمكن أن نرجع هذا إلى تخصصه المهني بالإضافة إلى الطب الفيزيولوجي الطب النفسي، وهو ما يظهر واضحا في قصة العسكري الأسود و أرخص الليالي و ليلة صيف وقاع المدينة وغيرها كثير ممن اتسم بطابع واضح في الترحال داخل النفس البشرية.

الهوامش:

¹ كامل سليمان الجبوري- معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، دار الكتب العلمية، ج7، ط1، بيروت، 2003، ص: 39.

² ويكيبيديا

³ موقع وكالة أنباء الشعر- في ذكرى ميلاد يوسف إدريس # https://ar.wikipedia.org/wiki/يوسف_إدريس

⁴ موقع وكالة أنباء الشعر- في ذكرى ميلاد يوسف إدريس الذي انسحب من الطب النفسي إلى الروحي ب "أرخص ليالي"

<http://www.alapn.com/ar/news.php?cat=11&iid=57085>

⁵ يوسف ميخائيل أسعد- سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، درط، مصر، 1986، ص: 05.

أستاذنا الدكتور لويس عوض، جعلوا لنا برنامجين مختلفين، فالدكتور لويس أثر أن يزور المتاحف والمكتبات والأماكن التاريخية وأن يعتكف بعيدا عن الخلق يتأمل كل ما قرأ عنه في تاريخ سويسرا وأماكنها المشهورة حتى الصخرة التي كتب الشاعر الإنجليزي بايرون قصيدة مشهورة بجوارها، بينما كان اهتمامي الأول أن أتعرف على الناس كتأبا وفنانين ومسرحيين من مختلف أنحاء سويسرا¹¹، ولعل الحدث الأبرز في رحلته هذه هو لقاءه ب (فريدريش دورنمات) وهو كاتب مسرح وروائي سويسري ألماني عالمي معروف، ويقول يوسف إدريس فيه: "أجل ما بهرني في دورنمات ككاتب مسرح هو قدرته على اختراع حدوثة مسرحية معاصرة، بينما العادة جرت في معظم كتاب المسرح أن يلجأوا إلى الميثولوجيا الإغريقية مثل أوديب وبيجماليون والكتر والذباب، يعيدون كتابتها برؤيا حديثة ومبتكرة، أما أن تختار أسطورة حديثة تماما منتزعة من صميم عصرها ومتناقضاته، فتلك لابد موهبة من نوع فذ تماما"¹²، هذا ويبين يوسف إدريس عاملا مهما يمكن أن يعد من سيكولوجية إبداعيته وذلك حينما تحاور مع دورنمات في بيته، وقد اندهش دورنمات كثيرا لفكرة يوسف إدريس حول الكون والإبداع عموما، يقول يوسف إدريس: "بإمعان التفكير وصلت إلى أن المادة في حالة نبض مستمر، تتجاذب مكوناتها، من مكونات الذرة إلى مكونات المجرة، وتظل تتجاذب إلى أن تصل إلى ما أسميته المسافة الحرجة لتبدأ قوى التجاذب تتحول فجأة إلى قوى تنافر منفجر هائل، وهذا القانون يشمل حتى العلاقات البشرية من تقارب وحب ثم تنافر وتباعد، ومن العلاقات داخل

⁵ مجدي وهبة وكامل المهندس- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، لبنان، 1984، ص: 17.

⁶ موقع عرسال- من مقالات هاجر (أجمل كتب يوسف إدريس)

<https://www.almrsal.com/post/394014>

⁷ يوسف إدريس <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

⁸ يوسف إدريس- عزف منفرد، ص: 62.

⁹ نفس المرجع، ص: 10.

¹⁰ نفس المرجع، ص: 13.

¹¹ نفس المرجع، ص: 16.

¹² نفس المرجع، ص: 18 و19.

¹³ نفس المرجع، ص: 26.

¹⁴ نفس المرجع، ص: 61.

¹⁵ نفس المرجع، ص: 28.